# الآثار القديمة فى العراق (*)

للمستر سيتون لويد

المشاور الفنى لمديرية الآثار القديمة العامة

قد يكون من المسلم ان نقول : ان اسم العراق مقترن غالبا فى أذهان العالم الخارجى بشيئين اثنين ـ هما النفط والآثار . والثانى منهما هو الابعد عهدا ـ لان العلماء والرحالين من الغرب قد قاموا برحلات الى بابل ونينوى ، قبل أن يهتم الصناعيون الاجانب بالثروة المعدنية للبلاد بكثير . وفى جميع انحاء البلاد تشهد انواعا مختلفة غريبة من الآثار الباقية ، بماضيها الرائع ، وتمثل تعاقب الادوار المتباعدة فى الاختلاف ، فى أطول تاريخ لاية دولة منفردة فى العالم .

وليس فى العراق من المعابد المبنية بالاحجار ، أو الاهرام ، أو القبور المنحوتة من الصخور ، كالتى فى مصر ، لان المادة البنائية الطبيعية هى الآجر الذى لا يطاول مرور الزمن كذلك . ومع ذلك ، بقيت هناك بنايات آجرية شاخصة وكشفت يد المنقبين عن غيرها .

وتكاد تكون جميع « حكومات المدن » ـ وهى التى قسم السومريون البلاد اليها بين القرن الثلاثين والقرن العشرين قبل الميلاد ـ قد تركت آثارا من عواصمها ، من اطلال معابد وقصور . وأبرز هذه المخلفات على الدوام هو « البرج العظيم » أو « الزقورة » ، الذى يبنى على ذروته مزار مركزى . وفى « اور الكلدانيين » و « كيش » و « اريدو » و « عقرقوف » ـ قرب بغداد وفى عدة مواطن اخرى ، تشهق البقايا المعراة لهذه البنايات العظيمة نحو السماء كما تشهق أبراج « بابل » المخيفة . ولكن الكشف عن هذه البنايات الملتفة على قواعدها كالعناقيد ، وانقاذ كنوزها ، قد احتاج الى صناعة المنقبين . فهذه المخلفات هى ، فى الواقع ، كل ما بقى على وجه الارض من أمتى « سومر » و « أكد » . ويمكن أن يقال هذا القول نفسه تقريبا فى « بابل » و « آشور » . فلم تكن بابل قبل التنقيب ، سوى ساحة واسعة ملأى من الآجر ليس الا . ولم تكن العواصم الاربع لآشور على دجلة العليا سوى تلول ، كان تعيينها نفسه مشكوكا فيه . وصحيح أن الملوك الآشوريين قد نقشوا لانفسهم من أعالى الصخور ، فى أماكن معينة من الجبال الشمالية رسوما لآلهتهم ، ودونوا تواريخ ما قاموا به ، بالاسلوب المفخم للغتهم ، ولكن فى غير ذلك من الامكنة ، لم يكن الا الاسد والعظاية يحرسان ، حيث كانوا هم ومعاصروهم من البابليين « يمرحون ويعبون الشراب عبا » . ومن أحاسن الاطلال الباقية فى العراق ، طلل يرتقى تاريخه الى السلالة الفرثية للفرس الذين حكموا العراق فى خلال حياة « المسيح » ، ذلك هو مدينة « الحضر » التى تحيط أطلال جدرانها وبيوتاتها ببقايا « المعبد ـ القصر » العظيم ، المبنى من الحجر . وانعزالها الجميل على ضفاف نهر يكاد يكون

(*) مترجم عن الانكليزية .

جافا ، فى وسط صحراء الجزيرة ، يروق الزائر الخيالى كثيرا .

وعلى بعد عشرين ميلا من جنوبى بغداد ، على نهر دجلة ، بنى « طاق كسرى » الشهير ، بعد ذلك بعدة قرون ، أحد الملوك الساسانيين . وقد بقى منه حتى الآن ، نصف الجبهة الامامية المبنية بالآجر ، وقد استدت الان الى سند قوى بنته الحكومة العراقية حديثا . كما ان بقايا الطاق نفسه قد قويت . ولا يزال القوس البنائى يرى من بعيد ، ويعد أعظم قوس لاية بناية آجرية مماثلة فى العالم .

وفى الصحراء أيضا ، غربى كربلا ، بنايه رائعة اخرى ، تجذب اليها الكثير من الزوار بالرغم من موقعها البعيد . تلك هى القصر المحصن المسمى « الاخيضر » الذى بناه ، فى أوائل سنى الاسلام ، عربى غريب الاطوار من ذوى السلطة . وقد بقى سالما تقريبا ، حائطه المدعم وكثير من حجره وبيوته ذوات العقادات الحجر . وهو يكون نقطة شاخصة مدهشة ، فى الصحراء القاحلة .

والبنايات الاسلامية المتأخرة كثيرة العدد جدا ، بحيث انه لايمكن اعطاؤها حقها من الوصف فى هذا المجال . فيرتقى تاريخ المدينة المدهشة القصيرة الامد ـ وهى سامراء ـ الى القرن الثامن للميلاد فى الخلافة العباسية . وهى على بعد سبعين ميلا من بغداد . وقد بناها وسكنها خلفاء متعاقبون ، ثم تركت ، وكان ذلك كله فى غضون أربعين سنة فقط . فامتدت جوامعها وقصورها الى مسافة تنيف عن العشرين ميلا على الضفة الغربية من دجلة . ولا تزال قائمة جدران مسجدين جامعين كبيرين ، ذوى مئاثر ملوية غريبة ، تذكرنا بـ « الزقورة » البابلية ، والايوان الاوسط لقصر الخلفاء . وقد اعدت خطط البنايات ، والمدينة كلها ، بدراسة ومهارة فائقة . والمدينة الصغيرة بقبتها المذهبة ، تعين على ادراك المقياس العظيم الذى بنى عليه العباسيون . فمما يثير الاستغراب حقا ، انهم فى بغداد نفسها ـ وهى عاصمتهم الاصلية ـ قد تركوا القليل من الآثار لما قاموا به من أعمال . والمدينة المدورة المشهورة التى بناها المنصور فى عام ٧٦٢ بعد الميلاد على الضفة اليمنى لدجلة ، أصبحت فيما بعد ، المقر الجميل لبلاط « هرون الرشيد » وعاصمة لانبراطورية امتدت من الصين الى الاندلس . ومع ذلك لقد كان تدمير قبائل « هولاكو » المغولية لها من الشمول بحيث لم يبق الآن من آثارها شىء تقريبا . حتى انه لم يمكن تعيين قصرها المشهور بقبته الخضراء ، تعيينا قطعيا . وفى حياة الرشيد شرعت فى الكبر ضاحية على جانب الرصافة فى الضفة المقابلة من النهر . وفى العصور الوسطى ورثت هذه الضاحية تراث مدينة المنصور ، واسم بغداد . وتضم أسوارها نواة المدينة الحديثة . ولكن البقايا العمارية الوحيدة للرصافة القديمة هى المدرسة التى بناها المستنصر بالله ـ وتسمى « المستنصرية » ، و « القصر العباسى » فى القلعة ، وقد أعيد بناء بقاياه الآن جزئيا .

وفى بغداد قليل من البنايات الاخرى التى بقيت على القرون السبعة من الحروب والاضطراب العام ،

تلك القرون التى مرت بين سقوط الخلافة والوقت الحاضر • ولكن بعضا من جوامعها ـ وعلى الاخص الجامع الذى فيه قبر الامامين فى الكاظمية ـ تعوض بوفرة زخارفها عن قدمها التاريخى •

ويبدو ان ما أصاب مدينة الموصل على يد الغزاة من الضرر كان أقل من غيره • فقد بقيت بناياتها العديدة بزخارفها المنحوتة من الحجر التى تعود تواريخها للعصور الوسطى • ويرتقى تاريخ أحسن هذه البنايات الى زمن السلطان بدر الدين لؤلؤ الملقب بأتابك •

وفى مدينتى كربلاء والنجف لا يعرف الزوار الاجانب الزخارف البديعة ، والكنوز المتكدسة حول الضريحين المشهورين الا بالسماع فقط •

كانت هذه المبانى التى ذكرناها آنفا ـ الى ما قبل مائة سنة ـ هى كل ما بقى شاهدا على قدم حضارة ما بين النهرين • ومنذ ذلك الحين أضافت التنقيبات الاثرية اليها ثروة من المعلومات التاريخية ، وآثارا فنية قديمة •

ويمكن تقسيم قصة التنقيب فى العراق الى ثلاثة فصول متفرقة :ـ

فمنذ حوالى سنة ١٨٤٠ حتى نهاية القرن الماضى ، كان عمل الرواد العظماء من الاثريين ـ الانكليز منهم والفرنسيين ـ مصروفا فى الاغلب ، الى التحقيق عن المدن والعواصم الآشورية ونقل كنوزها • وأبدت الحكومة العثمانية القليل من الاهتمام بالآثار • وفى خلال تلك المدة سار على نهر دجلة الكثير من السفن والاكلاك الموسوقة بالمنحوتات الآشورية المرسلة الى المتاحف الرئيسية فى اوربا والعالم الجديد ، والمستندات التاريخية التى لا تثمن ، تلك التى حل رموزها علماء الغرب الذين كان لسعيهم وقدرتهم الفضل فى جعل هذا العمل ميسورا الان • ولاعطاء مثال من ذلك نقول ان « السر هنرى لايارد » قد كشف فى قصر « سنحريب » فى « نينوى » عن ما يقارب مليين من الالواح المنحوتة وسبعة وعشرين مدخلا مكونا من ثيران مجنحة ضخمة واسود جاثمة « اسفنكسية » (١) وقد اكتشف هو أيضا فى هذا القصر وفى قصر « آشور بانيبال » القريب منه مكتبتين تحويان أكثر من ٢٥٫٠٠٠ رقيم من الطين المطبوخ بعد كتابته ، أو كتاب نسخت بالحروف الاسفينية ( المسمارية ) التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت ولم تكشف هذه الاشياء بالتفصيل عن القسم الاكبر من التاريخ الآشورى فحسب بل عن العلم والفلسفة الآشوريين ، من الوصفات الكيمائية الى الشعر الغنائى •

وقد اشتهرت السنوات الاوائل من القرن الحاضر بقدوم الاثريين الالمان الى أراضى ما بين النهرين وتحسينهم فن التنقيب فى غضون عملهم فى « بابل » و « آشور » وفى بابل على الاخص

(١) الاسفنكس Sphinx كلمة يونانية تطلق على التماثيل الجاثمة الشبيهة بابى الهول المصرى •

يمكن مشاهدة آثار تخطيطهم البالغ فى الدقة للبنايات وأحسن ما حفظ من تلك البنايات هو باب « أشتار » المشهور الذى نقل القسم الاعلى منه وبنى ثانية فى برلين .

ولا يبدأ الفصل الثانى الا بعد السنين التى اعقبت الحرب العالمية الاولى مباشرة عندما انشىء المتحف العراقى الوطنى بسعى « مس جرترد بل » ، وسن قانون الآثار لاقتسام اللقى التى يجدها المنقبون الاجانب . فأعقب ذلك عشرون سنة أرسل فى خلالها ستة عشر معهدا أجنبيا ، من خمس جنسيات مختلفة ، بعثات أثرية الى العراق ، ملأ عملها بالتعاون مع السلطات الاثرية المحلية ، المتحف الجديد من الآثار الفنية التى لا تثمن ، وأضاف الكثير من الفصول الجديدة ، تمام الجدة الى تاريخ حضارة ما بين النهرين الاولى ، والمدنية العالمية .

وفى الحق ان اكتشافات « السر ليونارد وولى » فى « اور الكلدانيين » فى أوائل سنة ١٩٢٠ قد أثارت استغراب العالم الغربى ، ووجهت جميع الانظار الى تألق الحضارة السومرية ، فشغلت « المقبرة الملكية » بما فيها من ثروة ذهبية وأحجار كريمة « وحفر الموت » الفظيعة أعمدة الصحف العالمية عدة شهور . فيبدو ان هؤلاء النبلاء السومريين لم يكونوا يدفنون مع أدوات زينتهم وما يملكونه فحسب ، بل كان يرافقهم الى القبر ، حاشية كبيرة من الحرس ، والخدم ، رجالا ونساء ، شاكى السلاح ، كاملى الزينة الشعائرية ، ليكونوا بدورهم ضحايا بشرية فى سبيل راحة سادتهم بعد الموت . وأغلب كنوز المتحف العراقى من هذا المصدر ، من أسلحة وأدوات من الذهب او الفضة المرصعة ترصيعا نفيسا ، والحلى الشخصية النفيسة من اللازورد ، والبلور الطبيعى ، والعقيق الاحمر والآلات الموسيقية ، ولوحات الالعاب ، وأجهزة التزيين الكاملة ، والخوذة الذهبية لأمير سومرى ... وهذه كلها تشهد بروعة هذه البلاطات القديمة ، وبالصنعة المتقدمة للشعب السومرى .

وكما سبق أن قلنا فان الكثيرين من الاثريين الآخرين جاءوا على أثر « وولى » وساهمت التلول فى جميع أنحاء البلاد فى اضافة مجموعة مختلفة أخاذة — من المواطن الجنوبية — من النحت السومرى الذى يبدو بصورة غريبة كأنه حديث ، الى الفخار المصبوغ النفيس للحضارات الشمالية ، يرتقى تاريخها الى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد .

والفصل الثالث لقصتنا لم يكد يبدأ بعد . فان اندلاع السنة الحرب الحاضرة قد وضع نهاية لمجهودات الزوار الاجانب ، فتركت دائرة الآثار القديمة العراقية وحدها تحافظ على استمرار البحث الاثرى فى البلاد . ومن حسن الحظ ان نتائج التدريب الفنى الطويل الامد ، قد بدأت فى الظهور لدى الموظفين العرب ، وان الخزينة لم تر من الضرورى تقليل المبلغ المخصص فى الميزانية بالتنقيبات .